غروب

بقلم: منى كمال

على شاطىء النّهر، وعند غروب الشّمس جلست بمفردها إلى جوار تلك الشّجرة العجوز، ذات الأفرع المتشابكة نظرت إليّ ذلك الفرع الممتدّ، والذي ألقى بجذوره إلى الأرض متشبّثا بها، كيف نمت منه أفرع صغيرة جديدة آخذة في النّموّ.

ورغم أنّه مازال يستمدّ غذاءه من الشّجرة الأمّ ، فلم تحزن ولم تمنع عنه الغذاء، خرجت منها تنهيدةً حارّة، وهي تتمتم: ما أعظمك أيّتها الشّجرة الحنون، ثمّ هامت بخيالها مرّة أخرى، ترى هل يوجد ثمّة شبه بيني وبين تلك الشّجرة؟!

تذكّرته بعينيه العسليّتين، وهو ينظر لها بحبّ ،وكيف كانت تعطي وتعطى دون مقابل. لم تكن تريد منه أكثر من أن تظلّ تلك النّظرة بعينيه.

أفاقت من شرودها على صوت ارتطام ،على صفحة ماء النّهر نظرت ناحية الصّوت.. إنّه صوت مجدافٍ لمركب صغير، يستسلم ليديّ صيّاد متعب، وأمامه زوجته التي تبدو أكثر تعبا

منه.

وهما في طريق عودتهما، بعد رحلة صيد شاقّة، ربّما أثمرت تلك الرّحلة عن رزق وافر أو لم تثمر.

هنا قفز إلى رأسها الصّغير سؤال: ترى هل هم سعداء؟ رغم ما يبدو عليهما من رقّة الحال؟

ولكن، ما هو مقياس السّعادة الذي سأبني عليه كونهما سعداء أم لا؟

هكذا سألت نفسها، وكانت الإجابة حاضرة، وليست بحاجة إلى تفكير، فالسّعادة شيء نسبيّ، يختلف من شخص إلى آخر.

مرّة أخرى رأت عيناه المتبسّمتان على وجه الماء، وتذكّرت كم قاست معه شظف العيش، ورغم ذلك كانت سعيدة، فقد كان يكفيها أن ترى تلك الابتسامة على وجهه، وتلك النّظرة الحنون في عينيه، كي تسعد وترضى وتقنع، ولكن سعادته كانت نابعة من هذا العطاء المتدفّق من جهتها.

اعتاد دائما أن يأخذ من مشاعرها ويعُب، ولم يلتفت مرّة واحدة أنّها هي الأخرى بحاجة للأخذ، حتّى تستمرّ بالعطاء. هنا طفرت من عينيها دمعة حارقة، استقرت على إحدى وجنتيها.

كفكفت دمعتها ملقية نظرة على الشّمس، التي بدت ملوّحة

بالمغيب، وهى تلملم ثوبها القرمزيّ، آذنة بقرب نهاية متوقعة.
نعم مثل نهاية حبّها التي كانت تتوقّعها دوما. كانت تعرف أنّه ولابدّ راحل، ولما يبق بعد أن استنزف آخر ما بها من مشاعر تجاهه.

سوف يغادر ليبحث عن قلب، مازال قادرا على العطاء، أمّا هي فقد سحب كلّ رصيده من قلبها، ولم يُبقِ منه شيئا.

انهارت الدّموع من عينيها، مثل شلّالٍ جارف.. كم أحبّته، وكم ودّت أن يظلّا معا إلى الأبد.

آه، لقد حلّ الظّلام، وغادرت الشّمس على أمل بالعودة.

فهل ستشرق شمس حياتها مرّة أخرى؟ هل ستجد قلبا ينبض بحبّها؟ قلبا قادرا على العطاء، قلبا يحوى بقايا حلم ضائع تمنّت أن تعيشه؟!

ربّما سيأتي يومٌ وتعيش الحلم القابع في زاوية النّفس.

نظرت نظرة حانية، للشّجرة الرّؤوم، وهي تهمّ بالمغادرة، شاكرة لها ذلك العطاء المتدفّق، وقد ارتاحت نفسها قليلا .

ذهبت وتركت بقايا دموع، وبقايا حلم في حضن الشّجرة الأمّ.